الاستاذ برستد

James Henry Breasted

١٨٦٥—١٩٣٥

لفؤاد عيناتي

اذا عدّ المؤرخون الاعلام في هذا العصر ، الذين قاموا بخدمات جلّى للعلم والتاريخ ودرسوا الشرق وآثاره ومدنياته دراسات وافية جامعة وأثاروا بمكتشفاتهم ومباحثهم ومؤلفاتهم مجاهل الاسفار الماضية والقرون الغابرة كان في طليعتهم المؤرخ الاميركي « جيمز هنري برستد » James Henry Breasted الذي ذاعت شهرته في أندية العلم وجامعات العالم في الشرق والغرب — فقد كان العالم الثقة والمرجع المستمد في المباحث الاثرية ولا سيما ما كان لهُ صلة بمصر والشرق الادنى

ولد برستد في مدينة (روكفور) في مقاطعة الينوي بأميركا في السابع والعشرين من شهر اغسطس ١٨٦٥ . وبعد ان تخرّج من جامعة North-Western في السنة ١٨٨٨ درس في مدرسة اللاهوت العليا في مدينة شيكاغو ومن ثمّ والى دراسته في جامعة (ييل) حيث نال منها عام ١٨٩٢ رتبة استاذ علوم وبعد سنتين حاز درجة دكتور في الفلسفة من جامعة (برلين) . وكان من صغره يميل للشرق وتاريخه وآثاره . ولم تأت سنة ١٨٩٤ حتى عُيّن مساعداً في تدريس علم الآثار المصرية في جامعة (شيكاغو) وظلّ يرتقي سلّم الترقي والنجاح الى ان وصل في السنة ١٩٠٥ الى رتبة استاذ في الآثار المصرية والتاريخ الشرقي في جامعة شيكاغو وبقي في هذا المنصب الرفيع الى عام ١٩٢٥ . ثم عين مديراً لدار الآثار الشرقية فيها . وبعد ذلك ترأس بعثة اثرية وتولى ادارتها في مصر والسودان سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ . وعين في سنة ١٩١٥ رئيساً لقسم اللغات الشرقية وفي ١٩١٩ مديراً للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو

وكانت المجامع الملكية في المانيا قد عهدت اليه في السنة ١٩٠٠ ان يقوم برحلة علمية الى متاحف اوربا للبحث فيها عن الكتابات المصرية واستنساخها وجمعها لتأليف معجم مصري يبحث

في الكتابات والنقوش والآثار المصرية التي يعثر عليها في المتاحف المذكورة

وفي عام ١٩١٩ اشرف على تأسيس وتنظيم المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو على قواعد العلم الحديث وذلك بالاموال التي وهبها لهذا العمل المجيد المثري الاميركي المشهور (جون روكفلر) الابن ، وكان هذا المعهد الاول من نوعه وغايته البحث عن بقايا الانسان القديم وتطور حياته ودراسة تاريخ المدنية والحضارات الاولى . واول عمل بدأ به (برستد) انهُ قام بادارة هذا المعهد بهمة ونشاط فجاء الى الشرق في عام ١٩١٩—١٩٢٠ على رأس بعثة اثرية تفرَّعت الى خمس بعثات ، وامتدت اعمالها من البحر الاسود الى مصر العليا . وكان لهذه البعثات الاثرية مراكز—في آسيا الصغرى (للبعثة المعنيّة بالتنقيب عن آثار الحثيين)—وفي فلسطين (لحفريات أرمجدون) —وفي الاقصر (للآثار المصرية وفك الرموز الهيروغليفية) . وكان (برستد) في الوقت ذاته المحرر المسؤول لنشرات المعهد الشرقي . وبنتيجة اعماله وجهوده عهد اليه المستر (روكفلر) الابن في عام ١٩٢٥ في مفاوضة الحكومة المصرية لمنحها عشرة ملايين دولار تخصص لتأسيس متحف شرقي ومعهد اثري في القاهرة للبحث في الآثار المصرية والتنقيب . غير ان الحكومة المصرية لم تسلم بجميع قواعد المشروع فلم يسع روكفلر إلاَّ أن يوقف إعطاء هذا المبلغ الجسيم

وفي السنة ١٩٢٧ وجَّه (برستد) نظر المستر روكفلر إلى حاجة فلسطين الى متحف اثري يضم شتات ما يكشف من الآثار المهمة في فلسطين فحوَّلهُ هذا أن يفاوض الحكومة الفلسطينية لمنحها مليوني دولار لانشاء متحف أثري في القدس . فأجابت الحكومة الفلسطينية طلبه وقبلت هذه المنحة بطيبة خاطر . وانشاء المتحف المذكور دلالة واضحة على ما يبذله أغنياء الغرب في مساعدة العلم وتقدير رجاله واتعابهم الكثيرة في خدمة الانسانية والمدنية

وكان (برستد) قد عُيِّنَ في السنة ١٩١٩ رئيساً للجمعية الاميركية الشرقية . وفي عام ١٩٢٧ رئيساً لجمعية التاريخ الاميركية . ولكنه ترك التعليم منذ ١٩٣٥ للتفرغ لأعمال البعثات الاثرية في الشرق الادنى . ومن أعماله الباهرة الحفريات التي أجريت بمعرفته لاكتشاف آثار مدينة (أرمجدون) في فلسطين . وقام بالقاء سلسلة محاضرات تاريخية أثرية ، معتمداً على ما اكتشفهُ من الآثار الثمينة والكنوز الدفينة ، وظلَّ يشرف على أعمال الحفريات ويقوم بأعمال البحث والتنقيب الى أن وافاه الاجل المحتوم في اليوم الثاني من دسمبر (كانون الاول) ١٩٣٥

ومن مؤلفاته المشهورة — (آثار مصر القديمة) ١٩٠٥ — ١٩٠٧ — و (تاريخ مصر) ١٩٠٦—و(تاريخ قدماء المصريين وتطور أفكارهم وآرائهم الدينية) ١٩١٢ـ (العصور القديمة) ١٩١٥ وقد ترجمه إلى اللغة العربية الاستاذ داود قربان من اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت

و (تاريخ أوربا — العصور القديمة والوسطى) بمساعدة روبنسون — و (أصول المدنية) و(فجر الضمير) وغير ذلك من المؤلفات القيمة

***

كان برستد من علماء الآثار الذين يذهبون الى ان مصر مهد الحضارة ومنشأ التمدن والعمران في العالم القديم . يعتمد في ذلك على ما اكتشف من الآثار المهمة الرائعة في مصر في الاعوام الاخيرة . فهو يرى ان للطبيعة والعوامل الجغرافية اكبر شأن في تسهيل السبل للانسان في العصر الحجري المتأخر لسكنى وادي النيل . وذلك ان مصر قبل عشرة آلاف سنة تقريباً كانت آهلة بالحيوانات والنباتات المختلفة . ولما كان الانسان في اول امره صياداً فهو يفتش عن المراعي الخصبة التي تكثر فيها الحيوانات . ثم ان اقليم مصر معتدل الحرارة يساعد على السكنى والانسان في مصر آمن على حياته فهو في حرز منيع يعيش في بقعة خصبة غزيرة المياه ، كثيرة الحيوانات تحيط بها الصحاري من جهة ومن جهة ثانية البحر الابيض المتوسط

ويرى (برستد) « ان الصيادين من سكان افريقيا الشمالية في العصر الحجري قد اجتذبتهم حيوانات الصيد الموجودة بكثرة على ضفاف النيل الخصبة فكانت سبباً في استيطانهم مصر » . وقد وجد (برستد) صور قواربهم التي كانت تمخر النيل مرسومة على الصخور في صحراء بلاد النوبة وراء (ابو سمبل) . ويرى « ان وجود الحيوانات بكثرة في وادي النيل من الاسباب المهمة التي ساعدت الانسان في العصر الحجري على سكنى مصر وعلى بزوغ الحضارة المصرية الرائعة منها . وبينما كانت مصر تتمتع بجوها المعتدل الملائم للحياة المدنية والتوطن غمرت اوربا موجة من البرد والصقيع فأخرت سيرها في التقدم والتحضر . آنئذ كان سكان مصر في العصر الحجري قد دجنوا اكثر الحيوانات المعروفة الآن وعرفوا الحبوب التي استعملها الانسان منذ القدم فزرعوها . وهذا مما سهل للصيادين في وادي النيل التوطن والاقامة حيث هم » . وهكذا يثبت لنا (برستد) « ان المصريين هم من اقدم الشعوب التي تحضرت اذ هيئوا لانفسهم سبل المعيشة الدائمة بتدجينهم الحيوانات وبسيطرتهم على قوى الطبيعة واستخراجهم المعادن واستعمالها واتخاذهم لاول مرة الكتابة الصورية . كل هذا جعلهم في طليعة الامم بعد ان تسلموا قيادتها بحذقهم ومهارتهم في الطرق التي سلكوها الى الحضارة والمدنية بينما كان بقية العالم يرسفون في بربرية العصر الحجري »

وهو القائل ايضاً — « ان ظهور المدنية على ضفاف النيل لا يعتمد على ضخامة الابنية المصرية وفخامتها بل لانها ظهرت آنئذ لاول مرة في التاريخ »

« ان من يعرف قصة الصيادين الذين عاشوا في وادي النيل في زمن ما قبل التاريخ واتقانهم

الى حياة اجتماعية منظمة — فصاروا امراء وحكاماً ومهندسين وصناعاً وبنائين وانهم الذين بنوا تلك البنايات العظيمة وخلّفوا الآثار المدهشة في وادي النيل — في زمن كانت فيه اوربا باجمعها تعيش في همجية العصر الحجري حيث لم يكن ثمة من يعلّم الاقوام مدنية القدماء — إنّ من يعلم هذا يعرف كيف ظهرت المدنية في العالم لاول مرة في التاريخ وكيف « نشأت الحضارة في زاوية الجنوب الشرقي من البحر المتوسط . . . . »

ويقول في مكان آخر —

« وكما ان المدنية الاورية انتقلت من اوربا عبر المحيط الاطلنطي الى متوحشي العالم الغربي (اميركا) كذلك اجتازت الحضارة الشرقية البحر المتوسط الى برابرة اوربا » . ويرى (برستد) « ان الملاحة المصرية في البحر الاحمر قديماً كانت ذات اثر مهم في وسائل السفر في المحيط الهندي وفي جزائر الهند الشرقية كما انها اثرت في صناعة بناء السفن في البحر المتوسط »[١]

ولا بد لنا في هذا الصدد من ذكر عبارة (الهلال الخصب) التي وضعها (برستد) للدلالة على البلاد التي تمتد في شكل نصف دائرة غير منتظمة من الخليج الفارسي وتصعد شمالاً الى بلاد بابل وآشور وتعطف الى جنوب الاناضول وشمال سوريا ثم تتجه الى الشاطئ السوري وتنحدر الى فلسطين جنوباً وخليج العقبة . والهلال الخصب هو المنطقة الغنية التي كانت موضع نزاع بين الساميين سكان البوادي وغير الساميين من سكان الجبال . فكان الهلال الخصب المنراعين التين تصدان هجرات الساميين المتعددة عن التقدم والنفوذ وتقف سدّاً منيعاً امام الموجات السامية المتدفقة . ففي الالف الثالثة قبل السيد المسيح تدفق العرب الساميون بالهجرة من صحارى الجزيرة العربية آتين الى ضفاف الفرات والدجلة وقد بيّن لنا برستد في كتابه (التاريخ القديم)[٢] العوامل التي اثرت في ديانة البدو الساميين الذين نزحوا من الجزيرة العربية الى البلاد المجاورة فقال: —

« الصحراء موطن البدوي . ووحدتها الشاملة وعزلتها المتقطعة قد جبلت نفس البدوي على الوقار فيتراءى له ان انحاء الجزيرة العربية مسكونة باشباح مفزعة ومخلوقات غير مرئية موجودة في كل صخرة وشجرة . بل في كل جبل وينبوع ماء . فالبدوي يعتقد ان هذه المخلوقات غير المرئية هي آلهته التي يعبدها وانهُ يتقرب اليها اذا نطق بصلوات وادعية ساحرة . . . . . وللبدوي شعور بالعدالة والحق وان عليه واجبات نحو اهله وعشيرته تفرضها عليه الآلهة . ولقد صارت فيما بعد هذه الاحساسات والشعور سُنناً عُليا جعلت الساميين معلمي الديانات للعالم المتمدن »

حلب

(١) Journal of Egyptian Archaeology vol. IV.

(٢) Ancient Times : A History of the Early World